﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ٤٣﴾ [الرعد: 43]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ الأقوالِ بعدَ الأفعالِ تعضيدٌ للحُجَّةِ وتَقويةٌ للبيانِ

لمّا تقدَّمَ في الآيةِ السّابقةِ بيانُ غفْلةِ الماكرين عن مكرِ الله تعالى، وأنَّه واقعٌ بهم عذابُه، وبالمؤمنين رضوانُه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٤٢﴾ [الرعد: 42] ناسبَ أن يَذكُرَ في هذه الآية قيلَهم الذي يُؤكِّدُ تلك الغفلةَ، بتكرارِ نفْيِ الرِّسالة عنِ النَّبيِّ ﷺ، فالمناسبةُ بين الآيتَين بيانُ غفلةِ الماكرين في أفعالهم وأقوالِهم، فهي من عطْفِ الأقوال على الأفعالِ التي تشتركُ في وحدةِ الهدفِ وهو الصَّدُّ عن سبيلِ الله تعالى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَىٰ﴾: الكاف والفاء والحرف المعتلُّ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على الحَسْبِ الذي لا مُستزادَ فيه، يُقال: كفاك الشَّيءَ يكفيك، وقد كفى كفايةً، إذا قام بالأمر، والكُفية: القوتُ الكافي، والجمع كُفًى، ويقال حَسْبُك زيدٌ من رجلٍ، وكافيك[1]، و"كفى الله، أي: أغنى عن غيره"[2]، و"الكِفايَةُ: ما فيه سدُّ الخُلّة، وبلوغُ المراد في الأمر. قال الله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: 25]"[3]. والمقصودُ بـ ﴿كَفَىٰ﴾ في الآية: حسْبيَ الله[4].

2) ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: الكاف والتّاء والباء أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفا).
(2) الصّحاري، الإبانة في اللغة العربية: (حرف الباء): 2/209.
(3) الراغب، المفردات: (كفى).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/473.

جمع شيءٍ إلى شيءٍ[1]، و"الكَتْبُ: ضَمُّ أديمٍ إلى أديمٍ بالخياطة"[2]، "وفي التّعارف: ضمُّ الحروف بعضِها إلى بعضٍ بالخطّ، وقد يقال ذلك للمضموم بعضُها إلى بعضٍ باللّفظ، فالأصلُ في الْكِتابَةِ: النّظمُ بالخطّ لكنْ يُستعارُ كلُّ واحدٍ للآخر، ولهذا سُمّي كلامُ اللّه – وإن لم يُكْتَبْ – كِتابًا كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 1 - 2]، وقولِه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: 30].

والكِتابُ في الأصل مصدرٌ، ثم سُمّي المكتوبُ فيه كتابًا، والكِتابُ في الأصل اسمٌ للصّحيفة مع المكتوب فيه، وفي قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النساء: 153] فإنّه يعني صحيفةً فيها كِتابَةٌ؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ [الأنعام: 7]"[3]. والمرادُ بـ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ في الآيةِ الكتبُ السّابقةُ كالتَّوراة والإنجيلِ على قولٍ[4]، والقرآنِ على قولٍ آخرَ[5].

❁ المَعْنى الإجماليّ:

قـلـيـلُ الـحـقِّ كفيلٌ بصدِّ كثيرِ الباطلِ

تذكرُ الآيةُ قيلَ المشركين الذي يُصرّون عليه وهو نفيُ الرِّسالة عن رسول الله ﷺ، قصدًا منهم في الصَّدِّ عن دين الله تعالى الذي جابهَ معتقداتِهم وسلوكيّاتِهم، وقد جاء قولُ المشركين هذا بعد إثبات النُّبوّةِ وتحدّي المشركين أن يأتوا بمثْلِ القرآن، وقد جاء التَّعليمُ الرَّبانيُّ بالرَّدِّ عليهم بأنَّ اللّه كافيه إيّاهم بشهادته على ما كان بينَهم، وشهادةِ أهل الكتابِ، ليبرهنَ على أنَّ الرَّسولَ المبعوثَ من عند اللّه تعالى يَكتفي بقليل الكلامِ الحقِّ، لصَدْعِ الباطل الكثيرِ الصّادرِ عمَّن يريدُ المكرَ والشَّرَّ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتب).
(2) الراغب، المفردات: (كتب).
(3) الراغب، المفردات: (كتب).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/502، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/473، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/176.
(5) ابن عادل، اللباب: 11/326، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/29.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾:

اغتِناءُ القرآنِ بالنَّبيِّ ﷺ تسليةً وتثبيتًا كرامةٌ وتشريفٌ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تحتملُ أن تكونَ للعطفِ، أوِ الاستئنافِ؛ فإذا جعلنا الواوَ عاطفةً تكونُ الجملةُ معطوفةً على الجملة التي قبلَها، فهما خبرانِ خارجان إلى معنًى بلاغيٍّ وهو تسليةُ النَّبيِّ، وتهوينُ تكذيبِهم على قلبِه ﷺ، ومواساتُه وشدُّ أزرِه، وتوجيهُه نحوَ الردّ المناسبِ؛ فعزيمةُ العبدِ في حاجةٍ إلى تقويةِ اللّه سبحانه ومساندتِه[1].

وتحتملُ أن تكونَ الواوُ للاستئنافِ، أي: بعد أن ذكرَ أفعالَ الماكرين في الآية السّابقة، اسْتأنفَ ليذكرَ أقوالَهم، فالواو مستأنَفةٌ مسوقةٌ لإجمالِ الشّبهاتِ الستِّ التي أوردوها، والتي تنتهي في اعتقادِهم إلى هذه النّتيجةِ وهي إبطالُ رسالتِه ﷺ[2].

وعلى الاحتمالَين فإنَّ النَّتيجةَ لا تختلفُ كثيرًا، إذ جاءتِ الآيةُ لتسليةِ النَّبيِّ ﷺ، فعلى القول بالعطْفِ هي من باب عطْفِ قيلِهم على مضمون الآيةِ السّابقة المُخبرةِ عن أفعال المكرِ، وإن كانت استئنافيَّةً فإنَّها كذلك خطابٌ واضحٌ شأنُه تسليةُ النبيِّ ﷺ في الموقفِ من كلامِ المشركين.

وقد ذهب البقاعيُّ إلى أنَّ هذه الآية معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ [الرعد: 27]، والعطفُ غيرُ مُستساغٍ لتباعُدِ ما بين الجُملتَين، إلا أن يُحملَ على عطف القولِ على القولِ الشّبيهِ بعطف القصّة على القصّة، فهو من عطفِ القصصِ لا عطفِ الجُملِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/175.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/136.

نُكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ القولِ مضارعًا:

كـلامُ الباطلِ عندما يتجدَّدُ يكونُ عجيبًا في مَنبعِه ومَبْعثِه

للمضارعةِ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم قد قالوا ذلك؛ إيحاءٌ دقيقٌ منبثقٌ من دلالة التّجدّدِ، وهي أنَّهم غيرُ مؤمنين بما يقولون، وأنّه قولٌ صادرٌ منَ اللّسان لمجرّد الحسدِ والحقدِ والجحودِ لا عن يقين وقناعةٍ، ونظيرُ ذلك قولُه ﷺ في موضعٍ آخرَ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: 33]، فهو قولٌ لا رصيدَ له من اعتقادٍ قلبيٍّ، وكيف وهم ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: 146].

عجيبٌ حالُهم يستحقُّ تصويرَه وكأنّه مُشاهَدٌ الآن، ومستقبلًا ليشملَ مَن قالها ومَن سيقولُها

وأفادَ التّعبيرُ بصيغةِ المضارع هنا ثلاثةَ أوجُهٍ، الأول: التّعجّبُ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: 63]، ولم يقل: فأصبحتْ، الثّاني: التّصويرُ كأنّها لم تزلْ واقعةً مُشاهَدةً، الثّالث: ليتناولَ اللّفظُ مَن قالها ومَن سيقولُ مثلَها في المستقبل[1]. ففي المضارعيّة "استحضارُ صورةِ كلمتِهم الشّنعاءِ؛ تعجيبًا منها، أو للدّلالةِ على تجدُّدِ ذلك واستمرارِه منهم"[2]، فبرغْمِ يقينِهم بأنَّ محمّدًا ﷺ الصّادقُ الذي لا يَكذبُ، الأمينُ الذي لا يَخون، فإنّهم يُجدّدون هذا القولَ، ولا يَفْتؤون عن قوله له كلَّما رأوه، وهذا من عجيبِ حالِهم.

فكانت دلالةُ المضارعةِ هنا بارعةً في ترجمة الدّلالتَين معًا: أنّهم غيرُ مؤمنين بما يقولونَه له، وأنّهم لا يزالون يُجدّدون هذا القولَ بأنّه ﷺ ليس مُرسلاً بعد ثُبوتِ حُجج النُّبوّةِ وقيامِ أدلَّة الحقِّ ورُؤيةِ دلائلِ الصِّدقِ.

بَلاغةُ حذْفِ مَنْ وُجِّه إليه الكلامُ:

تـكـرارُ الباطلِ دليـلُ قـوّةِ صاحبِ الحقِّ

مُقتضى النّظمِ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/436.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/29، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/175.

مُرۡسَلٗاۚ﴾ أن يُذكرَ المقولُ له ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾، وهو الرّسولُ ﷺ، أي: ويقول الذين كفروا للنّبيِّ ﷺ أو لك: لستَ مرسلًا، فحُذف اسمُه ﷺ للعلم به؛ لأنّه لم يقل بالرسالة أحدٌ غيرُه، وقد دلّتْ تاءُ الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَسۡتَ﴾ على تعْيينه بالخطاب، وبلاغةُ ذلك تظهرُ في كونِ النَّظم يُبرزُ عنصرَ الحوار بين الكافرين والنَّبيِّ ﷺ في توجيه الاتِّهام له بنفي الرِّسالة عنه، فأُضمرَ من قيل له ذلك اتِّكاءً على تاء الخطابِ، واستحضارًا للقولِ ساعةَ أنْ قيلَ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

لا يصدرُ عنِ الكافرين في مواجهةِ الحقِّ إلا مَحضُ الشَّرِّ

الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يتّسِمُ بإبهام الدّلالةِ وخفائِها؛ لذلك وُصفَ الموصولُ بأنّه فقيرُ الدّلالة؛ فيحتاجُ إلى ما يَسُدُّ فقرَ دلالتِه، فإذا جاءت صِلةُ الموصول توجّهَ الموصولُ وتحدّدتْ دلالتُه، وهنا جاءت صلةُ الموصول ﴿كَفَرُواْ﴾، وبها تحدّدت وجهةُ الكلام، وعرفَ المُتلقّي طبيعةَ الخبرِ الذي يصدرُ عن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وهذه الدّلالةُ هي التي يعبّرُ عنها البلاغيّون في مهامِّ التّعريف بالموصول: الإيماءُ إلى وجهِ بناء الخبرِ[1]، ويأتي خبرُ مقولِهم هنا من وادي ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ - والعياذُ باللّه ﷻ - من التّكذيب بالحُسنى.

دَلالةُ التَّعبيرِ بعُنوانِ الكفرِ:

الكُفرُ وراءَ كلِّ تصدٍّ للرَّسولِ والرسالةِ في كلِّ زمانٍ

جاء التَّعبيرُ بالكفرِ دونَ الشِّركِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّ وصفَ الكفرِ أعمُّ منَ الشِّرك، كما أنَّ الكفرَ هو عنوانُ التَّصدّي الجامعِ للرسالةِ والرَّسول والمُرسِلِ، فإنَّ هذه الكلمةَ بما تحملُه من معنًى لُغويٍّ وهو التّغطيةُ، وما تحملُه من معنًى اصطلاحيٍّ وهو تغطيةُ الحقِّ وإعلانُ الحرب عليه، كانت هي الأنسبُ في هذا

(1) التفتازاني، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 1/172.

السّياقِ، كما أنَّ فيها إيماءً إلى أنَّ الكفرَ ثابتٌ في تصدّيه لدعوة الإسلامِ في كلِّ زمان، بأشكالٍ متباينةٍ، وألوانٍ مختلفةٍ.

دَلالةُ صيغةِ الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

زعـامـةُ الـكُـفـرِ خِصّيصةُ أكابِرِ المُجرمين

عُبِّرَ عن كفرِ الكافرين بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿كَفَرُواْ﴾، ولم يُعبَّرْ بالمضارعِ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 21]، وذلك لبيانِ تحقّقِ فعلِ الكفرِ وصدْقِ وقوعِه من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وترسُّخِه في قلوبِهم، وتشرّبِه في نفوسهم، بلحاظِ الاسْم الموصول؛ فالذين يَتصدَّون لدعوةِ النَّبيِّ ﷺ همُ الكافرون الرّاسِخون في الكفرِ، والمعانِدون على أصوله.

دَلالةُ الجملةِ الفعليَّةِ المنفيَّةِ:

النَّـظـمُ يُـظـهـرُ خَفيّاتِ النُّفوسِ وبَواطنَ القلوبِ

ينتقلُ التّعبيرُ منَ المضارع إلى الماضي إلى الجملةِ الفعليَّةِ المنفيَّةِ ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾، في تنويعٍ بارعٍ يفيضُ على الأسلوب حيويّةً، ويَنفي عنه الرّتابةَ والفتورَ؛ إذ أتى مقولُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾. مضمونُها نفيُ الرّسالةِ عنِ الرّسول ﷺ جملةً وتفصيلًا، وبهذا اللّفظ القاطعِ ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾، أي: "إنَّما أنت مُدَّعٍ ما ليس لك"[1]. فأنت يا محمّد ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ في الماضي و﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ في الحال و﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ في المستقبل، أي لست عندنا بمنزلة أن تكون رسولًا أصلًا، ولو جاء التّعبيرُ بالفعل الماضي: (وقال الذين كفروا لم يرسلك الله، أو لن يرسلك)؛ لبقي احتمالُ أن يرسلَك مستقبلاً، وهم يريدون نفيَ الرّسالة عنه بالكلّيّة، وفي الأزمان كلِّها، والإخبارَ بأنَّه ليس هنالك رسولٌ أصلاً؛ فاختصارُ الكلام في كلمتين يكشفُ عن خُبثِهم، ودهائِهم في محاولة إخفاءِ هذه الحقيقةِ، وعدَمِ الإكثارِ منَ الكلام حولَها.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/403.

نُكتةُ التَّعبيرِ بنفْيِ الرِّسالةِ لا النُّبوّةِ:

مَضامينُ المَعاني كامِنةٌ في دقائقِ الألفاظِ

إيثارُ وصْفِ الرّسالةِ لا النّبوّةِ في جملة النّفي ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ يشيرُ إلى حسَدِ القوم، ويقرّرُ أنَّ الذي أغاظَهم هو إرسالُ اللّه تعالى له، فالإرسالُ يتضمّنُ النّبوّةَ لُزومًا، وتشريفَ المُرسَلِ، وتعظيمَ شأنِه عند منْ أرسلَه، ففيه إشارةٌ إلى ما تُكِنُّه صدورُهم منَ الحسدِ، وربّما لو اقتَصر أمرُه ﷺ على نبوَّةٍ فيها تكاليفُ لم يُؤمَر بتبليغِها لهانَ عليهمُ الأمرُ.

نُكتةُ حذْفِ مُتعلَّقِ الإرْسالِ:

مُبالغةُ الحاسِدِ في نفْيِ النِّعَمِ عن أهلِها شأنُ الحاقِدِ المُفلِسِ

إنَّ حقْدَ القومِ الدّفينَ هو الذي حملَهم على إطلاقِ نفْيِ الإرسالِ عنه ﷺ وعدمِ تقييدِه بقولهم مثلا: لستَ مُرسلًا منَ اللّه؛ حتى لم تُطِقْ نفوسُهم أن تنطقَ ألسنتُهم بإرسالِه ﷺ من قِبَلِ اللّه تعالى ولو كان النّطقُ به على سبيلِ النّفي؛ لذلك أطلَقوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، أي: لستَ مُرسلًا مطلقًا ومن أيِّ جهةٍ كان الإرسالُ، فهم بهذا النَّفي المُقترنِ بالإطلاقِ دون التَّقييدِ يُشيرون بطرْفٍ خفيٍّ إلى أنَّه ليس أهلًا للإرسالِ أصلًا لا منَ اللّه تعالى ولا من غيره، وهذا في غاية بُؤسِ الحقدِ، وصميمِ رذالةِ الحسدِ.

بَلاغةُ الفصْلِ في جملةِ القولِ:

إرشادُ الوحْيِ خيرُ نجاةٍ عند نزولِ المِحَنِ، وأعظمُ انتصارٍ عند وقوعِ الفتنِ

لمّا كان قولُ الكافرين: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ صريحًا في عُنوانه ومضمونِه "أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بجوابٍ لا جدالَ فيه، وهو تحكيمُ اللّه بينه وبينَهم، وقد أُمِرَ الرّسولُ ﷺ بأن يجيبَهم جوابَ الواثقِ بصدْقِه المُستشهدِ على ذلك بشهادة الصّدْقِ من إشهادِ اللّه تعالى وإشهادِ العالمين بالكتبِ والشّرائع"[1].

فجُملةُ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ توجيهٌ منَ اللّه تعالى لرسولِه ﷺ في الرَّدِّ على كلام الكفّارِ، ومُقتضى جملةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/175.

المحاوَرة الفصلُ لا الوصلُ، ونُكتتُه بيانُ المسارعةِ في الرَّدِّ على عُدوان الكافرين، وعدمُ التزامِ الصَّمتِ بما فيه تثبيتٌ للباطلِ، وتدلُّ هذه الجملةُ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنَّ الله تعالى لا يتخلَّى عن أوليائِه، بل يُرشدُهم لِما فيه الصَّلاحُ، فإرشاداتُ الوحْيِ هي خيرُ نجاةٍ عند المحنِ، وأفضلُ انتصارٍ عند وقوعِ الفتنِ.

بَلاغةُ حَذْفِ المقولِ لهم:

التَّناظُرُ بين الجُملِ مُلحقٌ بتناظُرِ المُتحاوِرين

جاء النَّظمُ بقولِه تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ﴾ دونَ أن يُقال: (قل لهم كفى)؛ ودليلُ الحذفِ هنا ضميرُ الخطابِ في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَكُمْ﴾، وكأن في ذلك إهمالًا لذكرِهم جزاءَ إهمالِهم ذكْرَه ﷺ في قولِهم المطلقِ دونَ التَّقييد بذكرِه ﷺ إلا بضميرِ الخطاب: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾؛ وبهذا حصلَ التَّناظرُ والتَّوازي بين هذه الجملةِ والتي قبلَها في حذْفِ مَن وُجِّه له الخطابُ بِنَفْيِ الإرسالِ عنه.

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾:

شَهادةُ الله كِفايةٌ تسدُّ كلَّ احتياجٍ وتدفعُ كلَّ ابتلاءٍ

جاء التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ دون أن يقول: (حسبيَ الله) كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة: 129]؛ وذلك بقصْدِ إحالةِ "الكافرين على موقف الحسابِ والمُساءلةِ بين يدي الله، وهو سُبحانه حَكَمٌ عَدْلٌ بينهم وبين النّبيّ ﷺ، عالمٌ بما كان منه من أمانةٍ في تبليغ ما أُمِر بِتبليغه من ربّه، وما كان منهم من تكذيبٍ وبَهْتٍ وكُفْر"[1]، وفي هذا الردّ تقويةٌ للمؤمنِ، وتعزيزٌ لجانبِ الثِّقةِ بالله تعالى، فهو مُتَكَفِّلٌ في محنتِه، فيكفيه الله تعالى ناصرًا ومعينًا، ويكفيه حَكَمًا وعَدْلًا، ويكفيه في الدّنيا والآخرة، ويكفيه على كلّ حالٍ، ولا يوجدُ في اللغة مادَّةٌ لغويّةٌ تعادلُ هذه المادّةَ ﴿كَفَىٰ﴾ وتسدُّ مَسدَّها في

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/145.

باب الطّمأنةِ، إنّها الكفايةُ والاكتفاءُ به ﷻ وأنعِم بها من كفاية! فهذا من كمال الاتّصاف[1].

دَلالةُ اسْتِعمالِ الباء:

اختِصاصُ الله تعالى بالشّهادةِ غايةُ الإيمانِ، والانقيادِ، والتّسليمِ

للباء في قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ إشاراتٌ تَنفي عنها القولَ بزيادتِها؛ لأنّها تنشرُ معانيَ الاعتصامِ والاكتفاءِ واللِّواذ والإيمانِ والاستمساكِ به ﷻ، فليست هذه الباء - كما يقولون - حرفًا زائدًا بل هو أحدُ عُمُدِ الدّلالةِ، يَضيعُ بغيابها معانٍ مُتكاثرةٌ بوجودها.

وقولُ النُّحاة: إنّها الباءُ الزّائدةُ المؤكِّدةُ، وإنّها تُزادُ في الفاعل، فيكونُ تقديرُ قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ بدونها: (كفى الله شهيدًا)، لا يوَفّيها حقَّها المنوطَ بها في هذا التركيب وأشباهِه، فقولُنا: كفى الله شهيدًا؛ لا يوازي قولَ الحقِّ سُبحانه: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، وذلك أنَّ النَّظمَ القرآنيَّ أعطى سِمةً دلاليَّةً وهي الاختصاصُ، فكأنَّه قال: كفى بالله وحدَه شهيدًا، في حين أنّ قولَنا: كفى الله شهيدًا، هو إخبارٌ محضٌ، ومن هنا افترق التَّعبيرُ بين الجُملتَين.

سِرُّ التَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ (الله):

تَوْريثُ الأمانِ في قلوبِ المؤمنين والهَيْبةِ في صدورِ الجاحِدين

اسمُ الجلالة هو العَلَمُ الذي يتضمَّنُ بقيَّةَ الأسماء الحسنى والصّفات العُلا لله الواحدِ الخالق الرّازقِ الوارثِ ﷻ، فهو يُغني عنها إذ يجمعُها جميعًا، ولا يُغني عنه غيرُه منفردًا؛ لذلك كان ذكرُه ﷺ بهذا الاسمِ الشّريفِ (الله) ﷻ مكمنَ الأمان ومصدرَ الطّمأنينةِ، ويظلّ اسْمُه العظيمُ (الله) ﷻ ملاذَ المؤمنين في مواجهة الكافرين، وهو ينشرُ معانيَ الجلالِ الذي قد يردعُ الكافرين ويَكبحُهم عن ظلمِهم، ويردُّ سوءَ أدبِهم عن رسولِه ﷺ والمؤمنين، فكيف بمن هذا شأنُه إذا شهدَ على العبادِ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/437.

دَلالةُ صيغةِ المُبالغةِ (شهيد):

شَهادةُ الباري سُبحانه مُستوفيةٌ لشرائطِها، شاملةٌ جميعَ أفعالِهم وأقوالِهم

قولُه تعالى: ﴿شَهِيدًا﴾، أي: بليغُ العلْمِ في شهادتِه[1]، فهو من باب المبالغةِ، والمبالغةُ في نفس الشّهادةِ باعتبار اسْتيفاءِ وجوهِها وجميعِ شرائطِها حتى لا يَشذَّ عنه من حال المشهودِ عليه في نفس الشّهادةِ شيءٌ[2]، وبذا ستكونُ الشَّهادةُ شاملةً على جميعِ أفعالِهم وأقوالِهم، وهو ما يتَّسقُ مع السّياق، ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: 42 - 43] وهذا أقوَى في إبراز عُنصرِ المحاسبةِ والمُساءلةِ يومَ القيامةِ.

شَهادتُه تعالى في الدّنيا على ظُهورِ المُعجزاتِ، وفي الآخرةِ بالمُجازاةِ

وقولُه تعالى: ﴿شَهِيدًا﴾ يعمُّ الدّنيا والآخرةَ فالدّنيا باعتبار ظُهورِ المُعجزاتِ على يديْ رسولِ الله ﷺ وهي تُنزّلُ منزلةَ قوله: صدقَ عبدي؛ فصار كالشّهادة لأحدِ الخَصمين بالصّدقِ في دَعواه باعتبار آيِ القرآن. قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144] وأمّا الآخرةُ فباعتبارِ مُجازاتِه إياهم وعقابِهم على تكذيبِهم[3].

نُكتةُ إيثارِ صيغةِ (شهيد) دون (شاهد):

تُستعملُ (شهيدٌ) في الشَّهادةِ الكليَّةِ الشّاملةِ، أمّا (شاهدٌ) ففي إقامةِ الحُجَّةِ

اشتقاقُ الشّاهدِ والشّهيد منَ الجَذرِ الثلاثيّ (شهد)، لكنْ هناك فرقٌ دقيقٌ بينهما من حيث المعنى في الاستعمالِ، فالشّهيدُ على وزن فَعيل وهي من صيغِ المبالغةِ، فالشَّهيدُ هو الذي يشهدُ شهادةً شُموليَّةً عامَّةً كما في الشَّهادةِ يومَ القيامةِ، كما قال سبحانه: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: 143]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/163.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/437.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/437.

كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٗا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء: 33]، وقال: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: 41]، وتستعملُ صيغةُ (شهيد) في مواضعَ يُراد بها المبالغةُ بقصْدِ الاحترازِ من مثْلِ قولِه تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾ [البقرة: 282]، فإنَّ مُقتضى المقابلةِ الإتيانُ بشاهدٍ، لكنَّ النّظمَ أتى بشهيدٍ بقصْدِ المبالغةِ، لبيانِ أنَّ هذا الشَّهيدَ قد عمَّت شهادتُه ورَسخَتْ، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: 37].

وهذا بخلافِ الشّاهدِ فهو على وزن اسْم الفاعلِ، ففيه معنى الشَّهادةِ بغرَضِ إقامةِ الحُجّةِ، دون معنى الشُّمولِ الكلّيِّ، وذلك مثلُ قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: 45]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولَۢا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل: 15]، وقولِه تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [يوسف: 26].

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ (شهيد):

شَـهـادةُ الـلـه تـعـالى أقْـوَى وأكبرُ

الشَّهادَةُ مُستعارةٌ لإظهارِ المعجزة الدّالَّةِ على رسالته، والجامعُ بينَهما مطلقُ الدّلالةِ، لكنَّ دلالةَ الشّهادةِ وضعيّةٌ، يحتملُ تخلّفُ مدلولِها عنها ودلالةَ الأدلّةِ الْعَقْليَّة دلالةٌ عَقْليَّةٌ لا يمكنُ تخلّفُ مدلولِها عنها، فشهادةُ الله تعالى أكبرُ وأقوَى شهادةٍ[1]. فجعلَ هذا شهادةً مع أنّه فعل، والشّهادةُ قولٌ؛ على سبيل الاستعارةِ؛ لأنه يُغني عنِ الشّهادة بل هو أقوَى[2].

دَلالة تَكرارِ الظّرْفِ (بين):

أهـلُ الـحـقِّ يُـبـايِـنـون أهْـلَ الـبـاطـلِ، ولا يُخالطونَهم في باطلِهم

جاءَ النَّظمُ بتكرار الظَّرفِ (بين) في قولِه تعالى: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ دون أن يقول: (فكفى باللّه شهيدًا بيننا)، وذلك لإيقاع

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/532.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/294.

الفصْلِ بين طرفَي الحقِّ والباطلِ لفظًا كما هو واقعًا، فإنَّ الجملةَ تومئُ إلى الحسابِ والحكمِ بين المُتخاصِمين، فكان الفصلُ بينهم هو الأليقُ بالمقام، والأنسبُ بالسّياقِ.

سِرُّ اسْتِعمالِ حرفِ الظَّرفيّةِ:

الـجـمْـعُ بين الـشَّـهـادةِ على العبادِ والحُكمِ عليهم

غالبُ تعْديةِ فعلِ الشّهادةِ بحرف الجرّ (على)، فيُقال: شهدَ على كذا، لكنْ في قوله تعالى: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لم يتعدَّ الفعلُ بحرفِ الاستعلاءِ، بل استُعملَ الظَّرفُ مُتعلِّقًا بقولِه تعالى: ﴿شَهِيدًا﴾، أي: أنَّ اللّه سيشهدُ بيني وبينَكم، وهذا الاستعمالُ الفريدُ يُنبئُ عنِ الجمعِ بين أمرَين، وهما الشَّهادةُ الشّاملةُ، والحُكمُ بين المتخاصِمين، فأشبَه هذا أسلوبَ التَّضمينِ، وهذا في غايةِ الوَجازةِ الجامعةِ بين الأداةِ والغاية، أمّا الأداةُ فهي الشَّهادةُ، وأمّا الغايةُ فهي الحكمُ الفصلُ، وبذلك يمتلئُ الأسلوبُ ويُعْمَرُ بالدّلالتَين معًا: دلالةِ الشّهادة، ودلالةِ الفصلِ والحُكمِ.

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالظّرفِ (بين):

مـا يُـريـدُه المُـبـطِـلـون تـشـخـيـصُ الخِلافِ وهذا ما يأباه القرآنُ

معنى شهادةِ اللّه تعالى بين الرّسولِ ﷺ وبين الكفّارِ لا محالةَ أنّه شهيد "عليَّ وعليكم بصدْقي وكذبِكم"[1]. بأنْ "يشهدَ بتأْييدِ رسالتي وتصحيحِ مقالتي بما أظهرَ لي منَ الآية وأوضحَ منَ الدّلالة بهذا الكتاب، ويشهدُ بتكذيبِكم بادّعائِكمُ القُدرةَ على المعارضةِ وتزْكِكم لها عجزًا، وهذا أعلى مراتبِ الشّهادةِ"[2]؛ لكنْ لو جاءتِ الشّهادةُ على هذا الظّاهرِ فقيل: كفى باللّه شهيدًا عليكم، أو شهيدًا لي؛ لأوْغرَتِ الصُّدورُ، واستُفزَّ في القوم الجهلُ والحميّةُ، ولأصبحتِ القضيّةُ شخصيَّةً، وهذا ما يُريده المُبطلون، ويأباه القرآن، فضلًا عن ضياع معنى الفصلِ والحُكم المُستفادَين من ذِكر الظّرفِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/581.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/164.

(بين)، فما أدقَّه من تعبيرٍ قرآنيٍّ كريمٍ، وما أعظمَه من إعجازٍ بيانيٍّ دقيقٍ!

دَلالةُ العطْفِ في قولِه: ﴿وَمَنْ﴾:

مَـن عنده علمُ الكتابِ شهيدٌ على العبادِ

اختلفَ المُفسِّرون في المقصودِ بـ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ وبمن ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اختلافًا كبيرًا، فمنهم من ذهب إلى أنَّ المقصودَ به الله تعالى، ومن قال إنَّ المقصودَ به جبريلُ عليه السلام، ومنهم من قال: إنّ المقصودَ به علماءُ أهلِ الكتاب، وهؤلاءِ قالوا بأنَّ المقصودَ به معيَّنٌ، ومنهم من ذهب إلى أنَّه جنسُ علماءِ أهلِ الكتاب[1]، ومُقتضى العطفِ أن يكون هناك اختلافٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، فالصَّحيحُ في هذا أنَّ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ "اسمُ جنسٍ يشملُ علماءَ أهلِ الكتابِ الذينَ يجدونَ صفةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ونَعْتَهُ في كُتُبِهِمُ المُتَقَدِّمَةِ مِنْ بشاراتِ الأنْبياءِ بِهِ، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: 156 - 157]"[2].

وهذا ما يشيرُ إليه قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ [الأنعام: 20]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: 36]، وقولُه سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [القصص: 52]، وقولُه جلّ شأنُه: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: 197].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ:

إقـامـةُ الحُجَّـة ببيانِ المَقْصودِ وشَرْحِ المَطْلوبِ

جاء التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ (مَنْ) في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ دونَ الاسْمِ الظّاهرِ لِما يأتي:

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/119، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/337، والشوكاني، فتح القدير: 3/108، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/176.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/474.

أوّلاً: إفادةُ العمومِ وإقامةُ الحجَّة ببيانِ أنَّ المذكورَ هو الحقيقُ بعلمِ ما جاءَ به محمَّدٌ ﷺ.

ثانيًا: التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ يقومُ مقامَ الموصوفِ، والتّقديرُ: واللّه الذي عنده علمُ الكتاب، على القولِ الأوَّل، أو: وأهلُ الكتابِ الذين عندهم علمُ الكتابِ.

ثالثًا: جاء التَّعبيرُ بلفظِ ﴿وَمَنْ﴾ دون (الذي) ليدخلَ تحتها الإفرادُ والتّثنيةُ والجمعُ، وبه يصحُّ الاحتمالُ المتعدِّدُ في الآيةِ.

رابعًا: العنايةُ بصلةِ الموصولِ، وهو ثباتُ علمِ الكتابِ، فإنَّ التّعبيرَ بصلةِ الموصولِ أقوَى منَ التَّعبيرِ بالاسمِ الظّاهرِ في بيانِ المرادِ، وهي أوجزُ في شرحِ المطلوبِ.

خامسًا: وفي سَوقِه هكذا على طريق الإبهام من ترويعِ النّفس بهزِّها إلى تَطلُّبِ المُتّصفِ بهذا الوصفِ ما ليس في التّعيين، فهو إذًا كدَعوَى الشّيءِ مقرونًا بدليلِه[1].

نُكتةُ تقديمِ الظَّرفِ:

إفادةُ اختصاصِ علمِ اللهِ بالكتابِ أو الاهتمام بعلم أهل الكتابِ

تقديم الظَّرفِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إن حملناه على أنَّ المقصودَ بالذي عنده علمُ الكتاب اللّه ﷻ فإنَّه يفيدُ الاختصاصَ، وهو الشّائعُ استعمالًا في القرآنِ، في مثلِ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14]، وقولِ اللّه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: 28]، وقولِ اللّه تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد: 8].

وذلك ما يُغري بترجيحِ كوْنِ المقصود بـ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو اللّه ﷻ، ويرجّحُ ذلك القولَ أيضًا أنّه لا اعتدادَ بشهادةِ غيرِ اللّه تعالى مع شهادتِه عزَّ وعلا. وإن حملناه على أنَّ المقصودَ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/164.

بالذي عنده علمُ الكتاب أهلُ الكتاب، فإنَّ التَّقديمَ يُفيدَ الاهتمامَ، يقول الآلوسي: "والحصرُ إمّا منَ الخارج لأنَّ علمَ ذلك مخصوصٌ به تعالى، أو للذّهاب إلى أنَّ الظّرفَ خبرٌ مقدّمٌ فيفيدُ الحصْرَ"[1].

نُكتةُ إفرادِ الضَّميرِ في ﴿عِندَهُۥ﴾:

تنزيلُ أهلِ الكتابِ منزلةَ الرَّجلِ الواحدِ في علْمِهم بصدْقِ النَّبيِّ ﷺ

جاءَ الضَّميرُ في قولِه تعالى: ﴿عِندَهُۥ﴾ مُفردًا، ونُكتةُ ذلك على القول بأنَّ المقصودَ بالموصول أهلُ الكتابِ هو مراعاةُ لفظِ ﴿وَمَنْ﴾[2]، وتنزيلُ أهلِ الكتاب منزلةَ الرَّجلِ الواحدِ؛ لاتِّفاقِهم على صدْقِ النَّبيِّ ﷺ، وعلى القول بأنَّ المقصودَ بالموصولِ اللّه تعالى، فإنَّ الإفرادَ مُناسبٌ للّفْظِ والمعنى.

نُكتةُ تعريفِ العلْمِ بالإضافة:

ما كان مُدوَّنًا فإنَّه أقوَى حُجَّةً وأرسخُ بُرهانًا

كان بالإمكان تحقيقُ الإيجاز بتعريف العلْم بأل؛ فيُقال: (ومن عنده العلمُ)، غير أنَّ التّعريفَ بالإضافة في قوله تعالى: ﴿عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يُشعرُ بأنَّ العلمَ مُدوَّنٌ مكتوبٌ حُجَّةٌ على الجميع المكذِّبِ والمكذَّبِ جميعًا، وذلك من شأنه إحياءُ شعورِ المُحاسبةِ، والخوفِ من شهادةِ المَسطورِ المدوَّنِ الذي لا يُنسى ولا يضيعُ، وهذا على القولِ بأنَّ من عنده علمُ الكتاب هو اللّه تعالى، وأمّا على القولِ الآخر، فإنَّ نُكتةَ ذلك هو الإشعارُ بأنَّ علْمَهم قائمٌ على أساسٍ متينٍ، وشهادتَهم متينةٌ وهي حقيقةٌ بالقَبولِ.

بَلاغةُ الكنايةِ في ﴿عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

اللّه تعالى عليمٌ بجميعِ الأشياءِ

المُراد بـ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: "اللّوحُ كما في قوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: 39] وعلْمُه كنايةٌ عن علْمِه تعالى بجميع الأشياء؛ إذ ما من كائنٍ إلّا وهو مكتوبٌ فيه وليس المُرادُ العلمَ بنفس اللّوح بل بما فيه منَ الكائناتِ والفاسداتِ"[3].

(1) الألوسي، روح المعاني: 7/165.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/65.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/532.

بَلاغةُ تعريفِ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يدلُّ على أنَّه ليس كتابًا مثلَ كُتبِكم التي تتداولونَها وما تتّسمُ بها من تصحيفٍ وتحريفٍ وتضييعٍ، وما تؤولُ إليه من بِلى وضياعٍ وما إلى ذلك، فهو الكتابُ الكاملُ المبرَّأُ من كلِّ هذه العيوبِ محفوظٌ مَصونٌ إلى يوم الدين، فقيل إنَّ علمَ الكتاب هو "علمُ القرآنِ، وما عليه منَ النَّظمِ المُعجزِ"[1]، وقيل: "هو التَّوراةُ، أي وشهادةُ علماءِ الكتابِ وذلك أنَّ اليهودَ كانوا قبلَ هجرةِ النَّبي ﷺ إلى المدينةِ يستَظهرونَ على المشركينَ بِمَجيءِ النَّبي المُصدِّقِ للتَّوراةِ"[2].

الكتابُ هو الكاملُ في الصِّفاتِ والعَجيبُ في اشتِمالِ الحقائقِ والدَّلالاتِ

لَطيفَةٌ في موقعِ الآيةِ الكريمةِ:

يقول صاحبُ التَّفسير القرآني للقرآن: "بهذه الآية الكريمة تُختمُ سورةُ الرعد؛ فيلتقي خِتامُها مع بدئها: ﴿ٱلٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾ [الرعد: 1]، ثم يصافحُ هذا الختامُ بدْءَ السّورة التي بعدها - إبراهيم -: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾".

الذِّكرُ الحكيمُ مُتَّسِقٌ اتِّساقًا دقيقًا من أوَّلِه إلى آخرِه

فقولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ جوابُ الكافرين على هذا الكتابِ الذي جاءهم النّبيُّ ﷺ به، والذي هو الحقُّ الذي أُنزلَ إليه من ربّه، وقولُه تعالى في أول سورة إبراهيم - بعد هذه السورة -: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ ردٌّ على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/29.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/65.

جواب هؤلاء الكافرين، وردْعٌ لهم، وأنّهم لم يَخرجوا منَ الظّلماتِ إلى النّور، ولم يأذنِ اللّه لهم بالخروج من تلك الظّلماتِ"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

البعثُ، والإرسالُ:

مُـهـمّـةُ الـرُّسـلِ إنــذارُ الـعـبـادِ واقـتـضى ذلـك رسالةً، والبعثُ إرسالٌ وزيادةٌ

البعثُ: الإثارةُ، والتّوجيهُ، والتّنبيهُ[2]. لذا قد يكونُ فيه إرسالٌ وفيه معانٍ أخرى غيرُ الإرسال، أي: فيه إرسالٌ وزيادةٌ. كبعثِ الموتى. و"الإرسالُ لا يكونُ إلّا برسالةٍ وما يَجري مَجراها"[3]. وتستلزمُه أطرافٌ ثلاثةٌ: (المُرسِلُ، والمُرسَلُ، والمرسَلُ اليه) من (رسالة) لفظيّةً كانت أو معنويّةً، في حين أنّ البعثَ قد يَستغني عنها ولا يَتطلّبُها، ويَستدعي التّفريقَ بين الإرسال والبعثِ لحاظُ البَوْنِ بين إرسال اللّه ﷻ الأنبياءَ (عليهم السلام)، وإرسالِه الشّياطينَ. فـ"إرسالُه الأنبياءَ إنّما هو وحيُه إليهم أن أنذروا عبادي، وإرسالُه الشّياطينَ على الكافرين: تَخْليتُهم وإيّاهم. كما تقول: كان في يدي طائر فأرسلتُه، أي: خلّيتُه، وأطلقتُه"[4]، ولمّا كان لفظُ الرّسولِ واضحًا مكرّرًا في أكثرَ من موضعٍ في السّورة مع ذكر الرّسالة (إنذارِ العباد) المُعبَّرِ عنه بقوله تعالى: ﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: 30] ناسبَ اصْطفاءُ لفظِ ﴿مُرْسَلًا﴾ في الآيةِ.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/144.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 268.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (رسل).

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»